القلق وبوح الذات في الكتابة النسوية
(قصاصات قلق) للطيفة حرباوي. قراءة ميكرو شعرية

الدكتورة: غنية بوضياف
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكـــــــرة

عرف الشعر العربي تطورات عدة في شكل القصائد ومضامينها عبر العصور إذ كان لكل عصر مميزاته التي تميزه عن غيره سياسيا وأدبيا واجتماعيا، حتى جاء عصرنا الحالي فظهرت القصيدة القصيرة التي تنحو نحو التكثيف والتركيز. وغدت القصيدة تعبيراً عن لحظة انفعالية محدّدة.

ولعل أهم أسباب الانتقال إلى القصيدة التوقيعة هو انتقال الشعر من المباشرة والخطابية إلى الإيحاء أو الانتقال من الشعر الذي يُلقى أمام متلقين في مهرجانات وأسواق شعرية ، إلى قصائد تقرأ في جو خاص. ولعل الظروف التي يمر بها عصرنا الحالي من توتر وثورات وانفعالات لم تعد تسمح بنظم القصائد الطوال، الأمر الذي أدى إلى وجود سمة الانفعالية والتعبير المقتضب والموحي. فظهرت قصيدة التوقيعة/ القصاصة التي تمتاز بإحساس شعري خاطف يصوغه الكاتب بألفاظ قليلة ومعان مكثفة.

ويمكن تعريف قصيدة التوقيعة/ القصاصة بوصفها(القصيدة البالغة في القصر، حتى لتكون الجملة الواحدة قصيدة)[1]. فهي قصيدة(الدفقة الشعورية الواحدة أو حالة واحدة يقوم عليها النص، تتكون من مفردات قليلة تتسم بالاختزالية)[2]. إذ يتطلب هذا اللون من الشعر المأزوم ذي اللحظة الانفعالية المحددة فطنةً، وذكاءً من الشاعر، ونباهة من المتلقي؛ لأن قصيدة التوقيعة تُبنى بناء إيحائيا أي بناء صورة كلية للقصيدة من خلال صورة واحدة تقدم فكرة، وانطباعاً بتكثيف شديد والمتتبع لما كتب حول هذا الجنس الادبي سيجد النقاد قد وسموه بكثير من الأسماء مثل: الأيبجرام– الومضة– التوقيعة– الخاطرة– اللافتة–

الأنقوشة– القصيدة المضغوطة– القصيدة المركزة– الدفقة– قصيدة المفارقة– القصيدة التأملية– الشذرة– قصيدة الفكرة– قصيدة القص .....[3].

ومع تعدد التسميات لهذا الجنس الأدبي إلا أن ثلاث تسميات فقط عرفت تداولا بين النقاد وهي الايبجرام– الومضة– التوقيعة. وهو ما يجعلنا نسعى لمحاولة المقاربة بينها والبحث في علاقتها ببعضها البعض.

1/ الايبجرام والتوقيع والقصاصة:

يعد(طه حسين) من أبرز النقاد الذين تحدثوا عن مصطلح الايبجرام وعن خصائصه في أدبنا العربي المعاصر إذ يذكر في كتابه(جنة الشوك) أن هذا الفن (الايبجرام) نشأ في الأدب اليوناني بوصفه مذهبا من مذاهب الشعر ثم انتقل إلى الأدب اللاتيني[4]. كما يرى(طه حسين) أن شعراء القصور في الإسكندرية وروما وبعض الحواضر الاوروبية هم من اهتم بفن الايبجرام اهتماما خاصا ووضعوا له أصوله وقوانينه[5]. وقصيدة الايبجرام هي القصيدة التي تتميز بالتركيز في العبارة والتكثيف في المعنى واحتوائها على مفارقة ، كما تكون مدحا او هجاء أو حكمة[6].

أما التوقيعات فقد لقيت رواجا في العصر العباسي وذلك لما تتميز به من قيم سياسية وحضارية و أدبية وخلقية[7].

ويرى النقاد ان أول من استخدم هذا المصطلح في الأدب العربي الحديث هو الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة إذ عنون قصيدة بـــ(توقيعات) في ديوانه(يا عنب الخليل)[8].

وما يلفت انتباه قارئ(قصاصات قلق) للطيفة حرباوي هو كثرة النصوص القصيرة المكثفة، وقد حاولت فيها الكاتبة تجاوز كل المصطلحات المتداولة لهذا الجنس الادبي لتكتفي بمصطلح يستمد تأثيره من خلجات النفس وتأملاتها، وهو ما نجده مثبتا في العنوان(قصاصة)، إذ جاءت ومضات الشاعرة ترتكز على المفارقة وقسّمتها على شكل قصاصات وهي عبارة عن قصائد(وثيقة الصلة بالتجريب والبحث عن أشكال جديدة للشعرية المعاصرة)[9] أو ما يمكن تسميته بقصيدة ما بعد الحداثة.

2/ صراع الذات الأنثوية بين البوح والألم :

تحاول الشاعرة لطيفة حرباوي عبر كتاباتها تجسيد همومها الشعورية واللاشعورية وصراعها الذاتي بالبوح والتمرد والاعتراف والمناجاة ، جاءت(قصاصات قلق) مرتكزة على قضايا الذات الأنثوية والهم الإنساني تنطلق فيها الشاعرة من حيرة وقلق مصبوغ بالزمن الحالي، هي قصاصات تستفز عقل القارئ وفكر المتلقي الذي عليه أن يبحث ويحلل حتى يصل إلى ذروة المتعة الشعرية. ففي القصاصة رقم 46 تقول الشاعرة:

نحن نبكي ليكبر البحر أكثر ...[10]

وهي في هذه القصاصة تبرهن لنا أن الأشياء لا تقاس بظواهرها أو بحجمها وإنما بقدر عطائها وجودها، فالبحر أعمق من الدمع الذي تتطهر به الذات داخليا لتمنح البحر زيادة وكثرة، وفي هذه القصاصة ما يدعو إلى معاينة التناقض الذي يجسد عناصر الوحدة، فهذه القصاصة تغوص بنا في عالم الشاعرة الداخلي وتكشف عن تلك الانسانة القلقة الثائرة، فالشاعرة تقدم صورة مكثفة عن معاناتها وضياعها في متاهات تعيشها وتحسها.

كما تعلن الشاعرة في القصاصة رقم 136 صوت الاغتراب والوحدة والتشظي والحنين في صورة شعرية مكثفة صارخة بالحيرة ومتشحة بالألم ذات ملمح درامي تقول:

لأنني بلا أم أضم السماء و كأن الهلال ابتسامة أمي ....[11]

في هذه القصاصة الشعرية الخافقة بالألم والأمل تعبّر الشاعرة عن الصراع الانساني مع المعوقات والدراما الانسانية الماثلة في الضدية بين البعد/ القرب ، والحياة/ الموت، إذ تعيش الشاعرة في هذه القصاصة لحظة توتر وصراع داخلي ترفع من خلاله الذات الشاعرة أوجاعها إلى المخاطب/ المتلقي. فهي ذات محبطة قلقة ساخرة إلى حد مأساوي وهو ما يطبع قصاصات الكاتبة بطابع الحداثة، فالشاعر الحداثي هو(الإنسان المتناقض، المتوتر، القلق، اللامتوازن الممزق بين واقع يحياه، وممكن يتطلع إليه)[12].

والقارئ(لقصاصات قلق) يجد نفسه أمام شعر ذاتي محض في أفق قصيدة التوقيعة، والذات الشاعرة هي ذات مشبعة بمختلف التجارب والمواقف، إذ لا يأتي التعبير عن الواقع في هذه القصاصات بشكل خطابي مباشر، أو حتى بشكل يستخدم آليات الرمز والقناع وتوظيف الشخصيات الموروثة للتعبير عن الواقع الحاضر، بل يأتي التعبير مبطنا عبر المفارقة، أو عبر الكلام عن الذات المحبطة في مشاهد مونولوجية. صورة الذات

المحبطة هذه هي صورة للواقع، بانكساراته وهزائمه. فالشاعرة في قصاصاتها لا تهجو ولا تمدح ولكنها ترصد، وتفارق، وتتألم. فذات الشاعرة ذاتا مقهورة، وقد حملها هذا القهر إلى السخرية تقول في القصاصة 58:

وطني وراء الباب يندب حظه الخارق ومنذ الطرقة الأولى يسأل من السارق؟[13]

كما نجد الذات الشاعرة متعالية في بعض قصاصاتها، تتعالى على الواقع لا لتحقره أو تغيبه بل لتصنعه من جديد، واقعا مثاليا جميلا تقول في القصاصة 150:

حين تركت لكم الأرض والهواء مازلت أتنفسني أمشي عليّ ولأني معي ثمة حياة.[14]

في هذه القصاصة تتحول ذات الشاعرة إلى مكان أو بقعة أو نقطة وصول أو إلى هاجس معنوي(الحياة) وهو الهاجس الذي شغل الشاعرة في كل قصاصاتها إذ لم تجد لطيفة حرباوي طريقا لتحقيق هذا الهاجس إلا بالكتابة والاحتراق بنارها، فالكتابة تحقق وجود الانسان وهويته، فالمبدع كطائر الفينيق الذي يحترق من شدة المعاناة والألم ثم ينبعث من رماده عبر الكتابة.

3/ القلق الوجودي/ قلق الكتابة:

الكتابة الشعرية هي نوع من المغامرة التي تسعى لفهم الانسان وكينونته في ظل معاني الوجود المتعددة وهو ما يجعلها احتجاجا على الهامش/ الحزين ضد المركز/ السعيد.

فالكتابة عند لطيفة حرباوي هي كتابة قلق ضد واقع وراهن متأزم وهو ما يتطلب من الشاعرة روحا متمردة رافضة وخروجا عن تاريخ الصمت الطويل لتعبّر عن همومها ومواجعها وآلامها، فجاءت قصاصات قلق مسكونة يقلق قومي ووطني، والهاجس البارز في هذه القصاصات هو ذلك القلق الوجودي الذي يشير إلى أن(هناك شعور أساسي يشعر به الانسان، ناتج عن كونه ملقى ومتروكا في هذا العالم ومرغما على الاختيار ... وبعض الفلاسفة اسموه القلق الميتافيزيقي لأنه ناتج عن الاحساس بالسقوط والانحلال والموت)[15].

ومن هذا القول ندرك أن صميم التجربة الوجودية هو القلق كون معاناته ملازمة لجميع لحظات التجربة الابداعية. وهو ما نلمسه في قصاصات لطيفة حرباوي، فالقلق ملازم فعلي لها لا يفارق كل قصاصاتها تتحكم فيه بنظرتها الاستشرافية للمستقبل.

فالقلق والتشظي لا يولدان سوى كتابة قلقة متشظية متأرجحة بين الشعور واللاشعور، ولعل عنوان الكتاب يعترف للقارئ منذ الوهلة الأولى بهذا القلق الوجودي والتشظي الذاتي(قصاصات قلق) إذ تثير في القارئ فضول الولوج لعالم الكاتبة الاكثر ضياعا وتشظيا، فالعنوان هو صوت الكاتب الذي ينطلق من خلاله إلى العالم عبر نصه.

ففي(قصاصات قلق) يتقاطع الشعري بالفلسفي والذاتي بالموضوعي، فرغم تمرد الكاتبة على النسق المعتاد للكتابة الشعرية إلا أن قصاصاتها جاءت مصاغة بدقة فنية قائمة على التفكك والاختزال والتكثيف معبّرة عن حالة القلق وأزمة الذات وانشطارها وتفككها في مجتمع تسوده التناقضات والمفارقات وهو ما جعل الكاتبة تنطلق من رؤية انتقاديه تستطلع فيها الواقع بكل سلبياته ومآسيه.

فقد حاولت الكاتبة الاتيان بشكل جديد في الكتابة يستوعب قلقها الوجودي فكانت قصاصاتها البديل الأوحد عن هذه البعثرة التي تعيشها في واقع مأزم ورغبة منها في تحقيق وجوده الفعلي وحضورها الميتافيزيقي عبر ومضاتها الشعرية التي تحمل دلالات باطنية تعانق الظاهر لملامسة أبعاده الخفية في الذات الناطقة قلقا.

الهوامش:

1/ محمد الصالح خرفي:" التجريب الفني في النص الشعري المعاصر– الممكن والمستحيل–" مجلة الناص، جامعة جيجل، ع 32 ، 2004 ، 2005 ، ص 22.

2/ هايل محمد الطالب:" قصيدة الومضة عند جيل التسعينات في سوريا" مجلة عمان، الاردن، ع 151، ص 4.

3/ ينظر: هدى بنت عبد الرحمان ادريس" الومضة الشعرية من الايبجرام إلى القصيدة التفاعلية، مجلة كلية الآداب، جامعة سوهاج، مصر، ع 36، 2014، ص 76.

4/ ينظر: طه حسين: جنة الشوك، مؤسسة هنداوي، مصر، ص 8.

5/ المرجع نفسه، ص 11 .

6/ ينظر: عز الدين اسماعيل: دمعة للأسى دمعة للفرح، شركة مطابع لوتس، القاهرة، 2000، ص 10.

7/ ينظر: محمد دروبي، صلاح جرار: التوقيعات الفارسية المعربة، منشورات جامعة ال البيت، 2000، ص 7.

8/ ينظر: مازن عبد الله:" شعرية التوقيعة من الايبجرام من طه حسين إلى عز الدين المناصرة " موقع دنيا الوطن، 2013، ص 16.

9/ عادل ضرغام:" شعرية القصيدة القصيرة. نماذج من الشعر السعودي" جريدة الآطام، ع 36، 2010، ص 1.

10/ لطيفة حرباوي: قصاصات قلق، دار علي لن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، ص 20.

11/ المصدر نفسه، ص 53.

12/ عبد الواسع حميري: الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1999، ص 13.

13/ لطيفة حرباوي: قصاصات قلق، ص 24.

14/ المصدر نفسه، ص 59.

15/ كميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الاسلامي والاجتماعي، مكتبة ناشرون، لبنان، ط1، 2000، ص 455.